١٧ـ العلاج الأسري والزوجي

توطئة:

ينظر إلى الأسرة على أنها أهم مؤسسة اجتماعية تؤثر في تكون الفرد ونموه وتطوره. إنه ينشأ فيها، ويكون موضع عنايتها، ويعيش ضمنها أطول ساعات حياته. وتنقل إليه أنماط سلوكها، ولغتها، والقيم التي تؤمن بها وتوجه نشاطاتها. وحين يغدو شاباً راشداً يبقى مرتبطاً بهذه المؤسسة الاجتماعية، ويبقى فيها طرفاً فعالاً رغم اختلاف دوره فيها من مرحلة إلى مرحلة .

ثم إن المدرسة ترجع إلى الأسرة لمعرفة المؤثرات في حياة التلميذ الحاضرة. وتتعاون معها فيما يلزم من إجراءات حين ينطوي سلوكه على ما يضايق أو يقلق. وكذلك يفعل المعالج حين يحتاج إلى معلومات توضح المؤثرات التي خضع لها المتعالج في السابق، أو يخضع لها حالياً. إن فهم الشخص وسلوكه بمعزل عن الأسرة وتأثيراتها لا يكون كافياً أو شاملاً أو متكاملاً. وانطلاقاً من هذه الصورة للأسرة كان البحث عن اعتمادها نفسها في تنظيم المعالجة النفسية لمن تظهر عنده مشكلات نفسية. لقد أجريت دراسات كثيرة حول هذا البحث منها دراسة «غورين» Gurin التي بينت أن أكثر العوامل في المشكلات التي يحتاج الفرد معها إلى مساعدة المعالج عوامل تعود إلى الأسرة.

وفي تعريف هذا النوع من المعالجة نقول : إن المعالجة النفسية الأسرية هي اتجاه في المعالجة النفسية الجماعية ينطلق من الأسرة في أسس المعالجة وتقنياتها وإجراءاتها وسيرها، ويعمل على توظيف كل ما ينطوي عليه نظام الأسرة، وذلك من أجل مساعدة فرد منها يعاني من مشكلات نفسية جاء يسعى وراء المعالجة للتخلص منها.

نشوء المعالجة النفسية الأسرية وتطورها :

مارست الأسرة وظيفة العناية بمشكلات أولادها منذ القديم، واعتبرت ذلك من مهمات تربيتهم وإعدادهم لحياة المستقبل . ولكن العودة إلى الأسرة من أجل العناية بواحد منها عناية منظمة يتولاها شخص من خارج الأسرة، أمرٌ بدأ مع المدرسة الحديثة،

والاتجاهات في فهم المشكلات النفسية وتنظيم معالجتها. وقد أخذت هذه العودة أبعاداً مختلفة تطورت تدريجياً.

بدأ الأمر بدراسة تاريخ حياة الفرد الخاصة داخل أسرته سعياً وراء فهم ذلك الفرد، ومعرفة المؤثرات والشروط المحيطية المتنوعة التي يحتمل أن يكون قد مر بها، وذلك من أجل تنظيم العناية به لأنه يعاني بعض المشكلات. ثم صارت الأسرة تشترك في تنظيم العناية بالأفراد الذين لديهم إعاقة مثل الصم، أو العجز الجسدي، أو مشكلات من نوع المشكلات التربوية والنفسية. ثم ظهر البحث عن الأسرة البديلة حين تبين في بعض الحالات، مثل بعض حالات جنوح الأحداث، أن جو الأسرة الأصل، لا يوفر شروط التربية المناسبة، بل يكون مؤذياً لأي برنامج علاجي للأولاد. ومع نشوء المعالجة الجماعية بدأ النظر للأسرة على أنها جماعة منظمة يمكن اعتمادها في شكل خاص من المعالجة النفسية الاجتماعية . وفتح المجال أمام أفراد الأسرة من زوج و زوجة وأولاد ليحملوا همومهم ومشكلاتهم إلى أجواء علاجية يوفرها هذا الاتجاه الجديد.

بدأ هذا الاتجاه يتطور مع الستينات، وظهرت فيه أشكال من الممارسات من أهمها ثلاثة :

الأول يقول بالمعالجة النفسية الأسرية باعتبار الأسرة جماعة ، أو باعتبارها وحدة عمل ووحدة تفاعل اجتماعي .

ويقول الثاني بالمعالجة الأسرية التي تقوم على اجتماع عدد من الأسر باعتبار ما يحققه هذا الاجتماع من منطلقات المعالجة الأسرية والمعالجة الجماعية الموسعة معاً .

ويقول الثالث بالمعالجة النفسية الأسرية التي تقوم على اجتماع عدد من الأزواج، يضم كل زوج الزوج والزوجة .

الأسس في المعالجة النفسية الأسرية :

تؤلف الأسرة جماعة خاصة تختلف عن الجماعة التي يكونها المعالج في المستشفى أو العيادة من عدة جهات. إنها جماعة طبيعية تؤلف أفرادها روابط من نوع الزواج، والدم،

والعيش معاً سنوات متعددة، والتفاعل في المفاهيم واللغة وأنماط السلوك، والمعاناة المشتركة للحياة تحت سقف واحد، ووجود الجنسين، ووجود الجيلين معاً، وأشكال من الصراعات بين الأفراد أنفسهم . وهذه كلها شروط لا تتوافر عادةً في جماعة مصطنعة يؤلفها المعالج لأغراض علاجية.

يضاف إلى ذلك أن مجتمع الأسرة مجتمع يبقى التفاعل بين أفراده قائماً خارج الموقف العلاجي، وتبقى احتمالات التأثير المتبادل قائمة في كل ساعة من الساعات الفاصلة بين اجتماع علاجي وآخر. أما التفاعل ضمن الجماعة التي يؤلفها المعالج فيبقى منحصراً في إطار الموقف الاجتماعي، وأن الاتصال خارج نطاقه يمكن أن يكون معدوماً.

ثم إن الغالب في حياة الأسرة في المستقبل أن تُبقي على العلاقات بين أفرادها سواء عاشوا معاً في بيت واحد، أو كانوا يتلاقون، ويتبادلون الاهتمام والعناية. وهذا حال الابن الذي يتزوج وينفصل عن أسرته ليكون أسرة جديدة.

الوظائف المختلفة التي تقوم بها الأسرة:

تتميز الأسرة، في حياتها المشتركة بين أفرادها، بوظائف متنوعة يمكن النظر إليها من خلال الفئات التالية:

١ - أنماط العلاقات السائدة : تقوم بين أفراد الأسرة علاقات خاصة عند حدوث الاضطراب في حياتها، أو لدى شخص فيها. نذكر منها العلاقة بين الزوجين، والعلاقة بين كل فرد وبقية الأفراد، والعلاقة بين أفراد الأسرة والولد الضعيف المضطرب. ومن ضمن هذا الموقف، شعورهم بالإثم، أو عدم القبول، أو الإشفاق أو الإنكار الشديد. إن أفراد الأسرة قد يكونون تجمعاً يكون الطفل المضطرب في مركزه. أو لا يضم مثل هذا التكتل الولد المضطرب. إن الطفل المضطرب نفسياً يخلق في الأسرة نظاماً خاصاً في العلاقات بين أفراد الأسرة.

٢ - أشكال التعبير العاطفي : يؤلف الترابط العاطفي في الأسرة نظاماً خاصاً، ويكون التعبير عنه واضحاً في حالات، وخفياً في حالات . وقد يحدث أن ينزع التعبير

العاطفي لأن يكون مقلقاً أو مخيفاً . فحديث الأم عن ابنها المضطرب يكون فيه كثير من التحفظ حتى لا يمس أحد الأبوين أو كليهما . يكون في الحديث ما يحاول أن يخفف أثر الشكوى حتى لا يصل الأمر إلى درجة تكوين النفور، أو الإنكار أو الهجوم المضاد . وعلى المعالج أن يكشف عن هذه الأشكال من التعبير العاطفي عند أفراد الأسرة المجتمعين في الموقف العلاجي، ولاسيما ما كان منها عاملاً رئيسياً في الاضطراب . ويجعل من هذه المعرفة طريقاً إلى المعالجة دون أن يعمق الاختلاف داخل أفراد الأسرة .

٣ - إجراءات ضبط السلوك : تتراوح إجراءات الضبط التي يمارسها الوالدان بين القسوة والاعتدال، والليونة، والفوضوية، ولكل منها تأثيره الذي تقف عنده دراسات الأحداث الجانحين . إن طريقة ضبط السلوك تتميز بالاستمرارية في حياة الأسرة، وهي تلعب دوراً فعالاً في مراحل العلاج .

٤ - الأدوار داخل الأسرة : لكل فرد دوره في الأسرة، يتجلى في أشكال معينة من السلوك . قد يكون الدور واضحاً، وقد يكون خفياً . قد يكون سوياً أو غير سوي. وقد يتطور الأمر فيكون في الأسرة «كبش فداء» يلام دائماً على أنه السبب فيما تمر به الأسرة. وحين يكون بين الوالدين صراع خفي حول كسب ود الأولاد، وجرهم إلى طرفه، ينطوي على الإبدال والتحويل، فإن هذه الأسرة تحتاج إلى عناية كبيرة، لأن الدور الذي يغدو قوياً لدى أحد الأعضاء في الأسرة يصعب تعديله بالجهد الشخصي في حدود الحياة داخل الأسرة.

٥ - القواعد السائدة في الأسرة : في كل أسرة مجموعة من القواعد المعلنة أو الخفية التي توجه سلوك الأفراد فيها. أما الخفية منها فتبدو من خلال ما ينفذه الأفراد. بين القواعد مثلاً ألا تناقش القواعد. وبينها منح الوالدين مكانة خاصة، وبينها ألا يؤذي الواحد الآخرين، وبينها أن تنظم المسؤوليات تنظيماً هرمياً ثابتاً للعمر . وكثيراً ما يكون تخطي هذه القواعد، أو التداخل في المسؤوليات بشأن الأولاد عاملاً رئيساً في وجود اضطراب داخل حياة الأسرة.

في الموقف العلاجي يجب أن تظهر هذه القواعد ، ويسعى المعالج إلى تحدي هذه القواعد (الخفية منها على الأقل). فإذا حاول ذلك، وجه عنايته إلى عدم إثارة ردود فعل قوية بين أفراد الأسرة ، وعدم إثارة قلق لا لزوم له.

٦ - الدفاعات والطلبات المتبادلة : على الرغم من الحياة المشتركة بين أفراد الأسرة الواحدة ، فإن لكل منهم تكوينه المتميز من حيث أسلوبه في التكيف ، ودفاعاته ، وأشكال قلقه ، وطموحاته ، وما ينتظره من الآخرين . لكن لا ينفي هذا الاختلاف القول بأن لنظام الأسرة أثره في هذا التكوين الخاص بالفرد . ويتبع هذا أن تغيير سلوك الفرد داخل مجتمع الأسرة ليس سهلاً، وأن ما ينتظر من تغيير لديه يجب أن يرافقه نوع من التغيير لدى الآخرين .

سير المعالجة النفسية الأسرية:

تأخذ الممارسة الواقعية للمعالجة النفسية الأسرية أكثر من شكل . يرى المعالجون في الأسرة مجتمعاً خاصاً، ووحدة عمل . ولكن بعضهم يلح على وجود كل أفراد الأسرة الواحدة، ويؤثر الآخرون الوقوف عند الزوجين إذا كان الاضطراب في حدودهما، أو ومعهما الولد الذي يعاني من صعوبات. ينطلق الفريق الأول من القول بأن الأسرة تؤلف نظاماً تأثر بالأولاد ونمو شخصياتهم. وينطلق الفريق الثاني من أن أصحاب العلاقة حين يوجدون وحدهم فذلك يتيح لهم التلقائية والحرية .

وفي كل الحالات ينطلق المعالج من مبدأ إقامة العلاقات الوثيقة، واعتماد الملاحظة، واعتماد المعلومات التي تكونت لديه عن الأسرة . واستغلال الفائدة الناجمة عن اجتماع أفراد الأسرة من أجل الأغراض العلاجية . وهكذا نرى أن المعالجة القائمة على الأسرة تختلف عن المعالجة الفردية، لأنها تعتمد على التداخل بين المشكلات التي يعيشها الأفراد. ووجودها في السابق هو الذي أدى إلى وجودها الحالي، وهو الذي يساعد في فهمها وفي علاجها . إن وجود الأولاد واشتراكهم في المناقشة الجماعية يتيح الفرصة للجميع لرؤية العلاقات بين أفراد الأسرة ويحرك كلاً منهم ليحكي قصة العواطف ويظهرها في مكانها

الصحيح، أكانت هذه العواطف سليمة أم لم تكن . إن الأساس في هذا الاتجاه أن الموقف العلاجي يجب أن يسهل على كل فرد الاستفادة من اجتماع الأسرة في مواجهة أمر تشكو منه الأسرة أو يؤثر في حياتها.

يضع المعالج مخططه العلاجي على أساس ما تجمع لديه من معلومات حول التفاعل والوظائف داخل الأسرة، وما تجمع لديه من وسائل ممكنة لمواجهة الضعف أو الاضطراب الحاصل داخل الأسرة، وتحركه وسائله إلى كشف ما تنطوي عليه الأدوار داخل الأسرة مما قد يسبب الأذى. ويستعمل في مواجهة الأذى كل طريق يؤدي إلى إحداث التغيير .

يعتمد التخاطب بين أفراد الأسرة للوصول إلى كشف المشكلات ومصدرها . ويتدخل مشاركاً في التحليل أحياناً، أو مذكراً بأمر، أو مشيراً إلى جانب كشفت عنه ملاحظته أفرادَ الأسرة . يترك المجال أحياناً لكل فرد لمزيد من التنفيس ، ويوجه ذلك في حالات أخرى. يغلب أن ينظم المعالج مخططه العلاجي متأثراً بنظرته إلى طبيعة المعالجة، وأن يترك في المخطط مجالاً للتعديل الذي يمكن أن تقتضيه المعالجة الجماعية .

obeikandl.com